

إلى بلد المحبوب.. الدار البيضاء

المدينة

الجغرافية تدخل التاريخ وتخرج منه لتتسكع لبعض الوقت على هامشه متفرجة على مدينة أخرى تصنع لنفسها تاريخاً. المدينة امرأة تعشق النظر طويلاً إلى جسدها في مرآة التاريخ، وترنو إلى واقعها وتحلم، محفزة المسافرين إليها على الحلم. يليق الحلم بالمدينة الأنثى وبعشاقها الكثيرين الذين يرتحلون إليها يحدوهم الشوق إلى لقائها. إلى مدينة «الدار البيضاء» مسافر أنا، فهل تقبل بي أنا المحب الذى لا يبتغى من المحبوب غير أن يقبل بي محباً؟ مسافر إلى بلد المحبوب، فهل يدلنى أحد على دار «ثريا» فى مدينة «الدار البيضاء»؟ الحاجز الزجاجى يفتح عن باب صغير لا يعبره إلا من يملك بطاقة الصعود إلى الطائر الحديدى السابح فى الفضاء. تقلنا حافلة إلى أسفل بطن الطائر الذى يبتلعنا فى جوفه ليطير بنا فى الأعلى. أنظر عبر زجاج النافذة بجسم الطائر الخرافى إلى نجمة الصباح التى تصحبنى دوماً وأصحابها، وأتحدث إليها وتتحدث إلى، محذرة من الأشياء المشتهاة التى تجلب الارتباك إلى القلوب الموسيقية.

أنظر بعين طائر صغير لا حول له ولا قوة، مقيد إلى مقعد ببطن طائر خرافى يحلق عالياً، فاستشعر انسجاماً بين الأرض التى غادرناها وبين السماوات التى تحملنا على أكفها الحانية. أكاد أحس أن العالم قد سادته

السلام والاطمئنان، وأستمع إلى صوت قلبي، فأدهش للحن المرح الصافي يسمو فوق نشاز الرغبة والهوى والضلال.

كل هذا النظام الرائع الذي يسير حركة الكون والكائنات، أكاد أحسه نعمة فاضلة تسبح في فضاء فاضل، يتردد فيه اللحن المرح الصافي متعدد النغمات. هذه روحى قد أصابها قبس من نور خالص، وهذا قلبي أراه قد أوشك أن يفيض بالموسيقى.

الطائر الخرافى يتابع طيرانه فى اتجاه الغرب الذى تسافر إليه الشمس فى رحلة يومية بديعة، تضى على الدنيا والناس بهجة الضياء وفرح الألوان. يحملنا الطائر الخرافى ويسافر بنا إلى الغرب، وفق قانون وضعى لبنى البشر، لكنَّ سفر الشمس ذات الإشراق والضياء والوهج، فى رحلة كل يوم، أمر يستعصى فهمه على عقلنا القاصر المحدود، وإن تقبلته أرواحنا فى سرور.

شمس المغرب اجتذبت إليها العديد من الرسامين والمصورين العالميين الذين سافروا إليها، مثل ديلاكروا، ماتيس، بول كلى، كاندينسكى، وآخرين، وكان ديلاكروا أول فنان أوروبى يقترح محراب فنون الشرق العربى والإسلامى، ويرتشف من صيفه الروحانية واللونية. رحلة ديلاكروا الشهيرة إلى المغرب فى عام ١٨٣٢م تعد رمزا للتفاعل الأوروبى مع الثقافة التشكيلية العربية الإسلامية وللاستلها منى، وهى الرحلة المغربية التى اعتبرها «أندريه مالرو» فيما بعد نقطة انعطاف فى التصوير الفرنسى، وبداية التحول من الرومانسية الاستشراقية إلى

بدايات الانطباعية.

وفى عامى ١٩١٢ و ١٩١٣م، قام الفنان الفرنسى «ماتيس» برحلتين إلى المغرب التى رسمها فى لوحات، تبدو للناظر إليها وكأن شمس المغرب تشرق من وهج ألوانها. وظلت المغرب وشمسها لا تغادر «ماتيس» حتى بعد سفره إلى باريس، التى عكف فيها على تطوير التخطيطات التى كان قد أنجزها تحت سماء المغرب وشمسها.

الطائر الخرافى يحلق بنا فوق البحر الأبيض المتوسط مخترقاً طبقات السحاب الكثيف. هل الاقتراب الجغرافى بين الشمال الإفريقى والجنوب الأوروبى، خصوصاً بالنسبة إلى دول مثل فرنسا وأسبانيا وإيطاليا قد خلف نوعاً من المزاج البحر متوسطى لدى العرب المغاربة؟.

فى البطاقة التى سلمتها مضيئة الطائفة إلى لى أملاً بياناتها وأحتفظ بها لأسلمها مع جواز سفرى إلى ضابط الجوازات فى الدار البيضاء، أكتب: قادم أنا من مصر قلب الجسد العروبى الواحد. قادم من مصر التى تمثل حضارة ملتقى تمتزج فيها العروبة بالإسلام بالإفريقية بالمتوسطية فى سبيكة واحدة. قادم من مصر التى فتحت ذراعيها لاستقبال المجاهد المغربى «عبدالكريم الخطابى» زعيم ثورة الريف، واحتضن ترابها رقاته.

أكتب فى البطاقة التى سأسلمها لضابط الجوازات فى الدار البيضاء: مسافر أنا إلى المغرب العربى الذى سافرت إليه قبائل من قريش وجهينة وقيس ولخم والأزد وحمير، ثم قبائل بنى سليم وبنى هلال، مسافر إلى

اللغة الأمازيغية التي هي لغة السكان في بعض الواحات في الصحراء الغربية المصرية، وإلى الأمازيغيين (البربر) إضافة الإيجابية للحضارة الإسلامية في الشمال الأفريقي.

تمر المضيغة أمامي هادئة مزهوة بجمالها الذي تلتقي فيه الطفولة بالأنوثة، وتسألني: قهوة؟ أجيبها بهزة موافقة من رأسى، أتذكر «ثريا» فتاة الدار البيضاء المرحلة صاحبة القلب الموسيقى. في قاعة الطعام بمعهد البوليتيكنيك في لندن كانت «ثريا» تعرف ما أريد وأحب، وكنت أعرف ما تحبه وتريده. سوياً شاهدنا حفلات عروض الباليه التي قدمتها فرقة الباليه الملكية على مسرح دار الأوبرا الملكية في حي كوفنت جاردن في لندن بمناسبة مرور خمسين عاماً على إنشاء الفرقة. أكثر من مرة لمحت في ظلام قاعة المسرح بدار الأوبرا دمة تتسلل من عيني «ثريا». ساءلت نفسي وقتها: هل القلب المضيء يقطر موسيقى ودموعاً؟

أتصفح جريدتي «العلم» و «الصباح» المغربيتين: وأقرأ فيهما محاربة المغرب وأسبانيا للهجرة السرية. الضغوط العنصرية تقصاعد ضد المسلمين في ألمانيا. الحكومة مدعوة إلى تكثيف البحث العلمي في قطاع الزيتون لمواجهة تحديات العولمة. انطلاق القناة التليفزيونية الفضائية «المغربية». الأمريكيون يكتشفون المغرب في فيلم «الإسكندر الأكبر» الذي صورت أغلب مشاهدته في مدينتي مراكش وورزازات. التوأمة بين هوليوود وورزازات زواج سينمائي مغربي أمريكي. المراكز الثقافية

الأجنبية بالغرب تلعب دوراً محركاً للنشاط الثقافي والفني. المطربة كريمة الصقلي تطير إلى باريس بعد غنائها في القاهرة. عبد الوهاب التازي عضو أكاديمية الملكة المغربية يعين عضواً في المعهد الإيطالي لإفريقيا والشرق. «الملائكة لا تحلق فوق الدار البيضاء» للعرض بعد أيام في قاعة سينما «داوليز» بمدينة الدار البيضاء.

الطائرة خفضت من ارتفاعها وتركت طبقات السحاب لتطير بنا فوق مياه المحيط الأطلسي. قائد الطائرة يعلمنا أننا بعد دقائق سنحلق فوق الدار البيضاء. أنظر إلى أسفل، إلى البحر الذي أحبه وأرهبه. البحر مرآة أتأمل نفسي وروحي فيه. ذلك البحر موغل في العمق مثل إنسان يصعب سبر أغوار نفسه. الظلمة في أعماق البحر وفي أعماق النفس.

«الملائكة لا تحلق فوق الدار البيضاء».. لماذا اختاره المخرج المغربي «محمد عسلي» عنواناً لفيلمه الذي يلقي القبول والجوائز في مهرجانات السينما؟ هل يعزف فيلم «محمد عسلي» على الوتر نفسه الذي عزف عليه زميله المخرج «نبيل عيوش» في فيلمه «عسلي زاوا» الذي جعل الكثيرين يكتشفون الحياة الصعبة لأطفال الشوارع المشردين الذين يعيشون داخل فندق «لينكولن» المهجور في مدينة الدار البيضاء إلى جوار سكان شارع محمد الخامس؟

طائرنا الخرافي الذي حملنا في جوفه وانطلق بنا في اتجاه الغرب وفاز في سباقه مع الشمس، ها هو ذا الآن يحلق فوق الدار البيضاء التي تستلقي مسترخية على ساعد المحيط الأطلسي. وها هي ذى شمس

الساعة الثامنة صباحاً التي تركناها في بدايات البزوغ في سماء القاهرة، أمامها ساعة كاملة حتى تتعامد أشعتها على سطح مياه المحيط الأطلسي وعلى رءوس الأشهاد في المدينة الكبيرة البيضاء.

هذا مسجد الحسن الثاني يربض في خيلاء فوق مياه المحيط، وهذه مئذنته التي ترتفع عالياً في السماء. أشعة الشمس تنعكس على الرخام الذي يغطي جدرانه الخارجية ألوان قزح. مشهد مسجد الحسن الثاني من أعلى عبر زجاج نافذة الطائرة يوحي للناظر إليه برهبة وجلال.

مسجد الحسن الثاني في الدار البيضاء الذي أراده العاهل المغربي جامعة لقمة الفنون الإسلامية عبر العصور، افتتح في ذكرى المولد النبوي الشريف في عام ١٤١٤ هـ (١٩٩٣م). ذكر في ذلك الوقت أنه قد تم استلهم عمارة مسجد الحسن الثاني من جامع الكتبية في مراكش، والقرويين في فاس، ومن الخير الدا في أشبيلية، ما يعكس تداخلاً حضارياً يفى بالتعبير عن موقع الدار البيضاء على تقاطع الطرق بين إفريقيا وأوروبا، وما يشهد على براعة الحرفيين المغاربة.

حطت طائرة الخطوط الملكية المغربية على أرض مطار «محمد الخامس» بمدينة الدار البيضاء، لكن موعد لقائي الحميم مع بلد المحبوب سيكون بعد الانتهاء من أعمال مؤتمر اتحادات الكتاب السياحيين العرب والمتوسطى والعالي الذي يعقد في مدينة مراكش، التي نقلنا إليها طائرة تابعة للخطوط الداخلية المغربية بعد ساعة واحدة نمضيها في مطار محمد الخامس الدولي.

الركض وراء شمس مراکش

تسطع الشمس في سماء الدار البيضاء، مخلقة ذلك اللون الحر النقي، الذي يتعفف عن مخالطة ألوان أخرى، والذي يتحرك وحيداً وقوياً وغير منقسم على ذاته، كأنه قلب عاشق محب لم يتغير ولم يتبدل. يتجول اللون الحر النقي في فضاء المكان في حركة مستقيمة أو متكسرة أو مقوسة، مكونة ذلك التشكيل الهندسي والزخرفي، الذي يعانق البصر منذ اللحظة الأولى التي ينظر فيها المسافر إلى حرم عمارة مطار محمد الخامس الدولي.

يمتلئ القلب بمشاعر ود تجاه الأشياء والأحياء من حوله، ويفيض حزناً جميلاً، على شكل قطرة دمع تعرف طريقها جيداً إلى الغائر من خطوط الزمن المرتسم على صفحة الوجه الحزين، الشاهد على خيانة اللون الحر النقي وعلى تبدله وعدم ثباته مع كل تبدل في الضوء والمناخ.

بعد دقائق من تعامد الشمس على الدار البيضاء المغربية، التي لم تفتح لنا أبوابها بعد، تحملنا طائرة الخطوط الجوية الداخلية إلى سماء «مراكش» التي تبعد عن سماء «الدار البيضاء» بحسب سرعة الطائرة بنحو نصف الساعة.

من خلال زجاج النافذة أرى لون مياه المحيط الأطلسي تحت ضوء

شمس الخريف أقل سطوعاً وعنفاً من لون مياه بحر الإسكندرية الأبيض المتوسط تحت ضوء شمس شهر أغسطس الحار الرطب.

تهبط بنا الطائرة في مطار مراكش. الأحمر الوردى هو اللون المميز للمدينة التي تبدى كل الترحيب بالسائح الأجنبي. وأنا القادم من مصر، محطة المغاربة في طريقهم إلى الحج، فاتحاً قلبي وذراعى إليك، بماذا تغدقين علىّ يا مراكش؟.

وحدى في المقعد المجاور للنافذة الزجاجية بالحافلة التي تقلنا من مطار مراكش بزخارفه الحمراء والأرجوانية في اتجاه فندق الميريديان، أعانق بناظري الأخضر الداكن الجهير في الشجر، والوردى الصالح في عمارة البيوت. يتسلل إلى سمعي صوت آلة الربابة الأمازيغية شقيقة آلة الربابة الصعيدية أنغام موسيقى الدقة المراكشية بايقاعاتها العربية الأفريقية.

طائر أبيض ينطلق من فوق شجرة يرتقال في اتجاه الشمس التي تميل ناحية جبل اصطبغ بلون خد عاشق ارتبك قلبه الموسيقى أمام من يحب وينهى. بيوت ترتفع قليلاً وتنخفض بعض الشيء كأنها بنيت فوق درجات سلم موسيقى، ونساء من مراكش يرتدين العباءات المطرزة التقليدية ويقدن دراجاتهن البخارية في طريق عودتهن إلى بيوتهن من أماكن عملهن.

منذ اللحظة الأولى تتسلل مدينة مراكش إلى داخل قلبي كلحن عاطفي لم أفك شفرة إيقاعه بعد. شيء في صدري يومئ لي بأن علىّ أن أتخفف

من أثقال روحى أولاً حتى يمكننى التعرف إلى إيقاع نغمة مراكش التى تعرف طريقها جيداً إلى أصحاب القلوب الموسيقية.

أكاد أستشعر فى داخلى شذرات لحن خافت يبدأ فى التخلق، لعله افتتاحية اللقاء بين قلبى الموسيقى وبين قلب مراكش الموسيقى؟. لعل شذرات اللحن الخافت تشير إلى بداية قصة حب تربطنى بمراكش المكان والزمان والبشر والجغرافيا والتاريخ؟.

أخرج إلى فضاء المدينة الملون. إنها الدهشة المشتهاة تتلبسنى وتفتح عينى على آخر اتساعها حتى لا يفوتنى جزء من المشهد، إنها الدهشة المبتغاة تتملكنى، فتتسع لها خطوات ركضى خلف شمس مراكش، وتشد لها أوتار قلبى وتنضبط على نغمة مراكش الصارحة .

اعزفى لى يا مراكش فقلبى متعطش إلى الألحان، اعزفى لى لحنك الأمازيغى على ربابتك الأمازيغية، شقيقة الربابة الصعيدية فى جنوب مصر، يعزف عليها شعراء الصعيد السيرة الهلالية. وتحدثنى إلى يا مراكش بالعربية والأندلسية وإن أردت بالأمازيغية التى يتحدث بها أهلى وناسى فى واحة سيوة المصرية.

ساعدينى يا مراكش على أن أتخفف من أثقال روحى حتى أستمتع إلى ندائك العذب لا يسمعه إلا من صفت أرواحهم وسكنت الموسيقى قلوبهم. ساعدينى يا مراكش على أن أتخلص من ذنوبى التى اقترفتتها فى المدن الكبيرة ذات الوجه المكشوف والظالم أهلها والتى لا تحلق الملائكة فوق سمائها.

أركض أنا خلف شمس مراكش الغاربة. لا أعلم من أنا، ولا من أتى
بى إلى هنا، ولا أعلم إلى أى اتجاه أقصد. أركض خلفك يا شمس مراكش
وأنت فى عز ازدهارك تُنْهين رحلتك البديعة التى لا تملين من القيام
بها فى كل يوم، رحلة الشروق والغروب.

أية قصة حب حقيقية مباركة هذه التى تجعلك تسافرين يا شمس
مراكش كل يوم من أجل ذلك اللقاء الأبدى الخالد الجميل هذا الذى
تهفو إليه روحى ونفسى. أية قصة حب حقيقية مباركة هذه التى هى
أقرب إلى التسبيح باسم الله العلى المتعالى فى الأعلى.

إنه سفر إلى الحبيب المتعالى. تسافر الشمس إلى الحبيب ومن
خلفها تسير مواكب الألوان والأضواء والعطور والطيور والقمر،
والراكضين مثلى على وقع موسيقى كونية، تستمع إلى نغماتها
وتستعذبه الأرواح ذات القلوب الموسيقية، وتطرب إلى إيقاعها النفوس
الطاهرة السامية.

لمن الغلبة، للضوء أو للون فى مراكش؟. أكاد أتصور أن لون مراكش
قد حصل على استقلاله من هيمنة ضوء شمسها، وأن المرثيات الملونة
فى مراكش يمكن أن ترى من غير ضوء. لكن تصورى هذا قد يصطدم
بأبحاث «ابن الهيثم» فى علم البصريات التى تجزم بأن اللون يرافق
الضوء ويلازمه ويتميز به وينتشر معه.

أرى لون مراكش يتغير ويصبح مختلفاً مع كل تغير وتحول فى
ضوء شمسها أثناء رحلتها البديعة إلى الغرب. أرى مراكش امرأة

جميلة عيناها يتغير لونها بتغير لون كل ثوب جديد ترتديه يأتيها به عاشقيا.

من فرط جمال اللحظة العبقرية التي تخشع الكائنات أمام بديع ألوانها، لم يملك الأبيض الناصع النقى الذي بات ليلته ساهراً على قمم جبال الأطلس إلا أن يذوب عشقاً وهو يتأمل لقاء الشمس بالجبل واختفاءها وراء الحجب والأستار.

مراكش وقد ارتدت حلة بلون زهر البنفسج، رأيتها وهي تخفي وجهها حتى لا يرى محبوبها بعض آلامها. رأيت مراكش وهي تخلع حلة الألوان والضياء التي ارتدتها طوال رحلة شمسها من شرق المدينة إلى غربها لترتدى أخرى مزينة بمصابيح كهربائية تحجب أكثر مما يمكنها كشفه.

مراكش المدينة القديمة الجغرافية التاريخية الشامخة كجبال أطلس، والتي أعارت اسمها للمغرب لفترة في التاريخ، وتنازع عليها ملوك، وتعاقبت عليها سلالات حاكمة، وتحدث عنها رحالة وشعراء وروائيون في كتبهم. ها هي ذي مراكش القديمة تستعد للنوم مبكراً لكي تستيقظ مبكراً. لكن في مراكش الحديثة يطول الليل والسنهر، ويتناثر في فضائها الداكن - إلا من منذنة مسجد الكتبية السامقة المنيرة - دخان وضحكات لاهية وبعض أسي وحزن غامض.

شوارع ليل مراكش التي تخلو من راكبي الدراجات الهوائية والبخارية من الرجال والنساء المرتدين العباءات، بها متنوع للسيارات

السوداء الفارهة التي تشق طريقها بحرية قاصدة فندق «المأمونية» الشهير، قبلة أثرياء العالم من الغرب والشرق، الذين لا يترددون فى دفع آلاف الدولارات الأمريكية، نظير شغل غرفة لليلة واحدة، أو فى دفع آلاف الدولارات الأمريكية، لقاء دقائق من المرح تجلبها لهم مائدة قمار. فى ليل مراكش سكون مريب لا يأبه كثيراً بأصحاب القلوب الموسيقية الفقراء من أمثالى، الذين يركضون خلف شمس المدن فى رحلاتها اليومية البديعة، ولا يأبه بصوت إيقاع الدقة المراكشية التى يرقص عليها عربى فى ليلة زفافه على امرأة أمازيغية جميلة، ولا يأبه بشجن صادر من آلة ربابة أمازيغية صعيدية.

صورة تذكارية للجميلة النائمة

أطفئ

لون الكهرباء في غرفتي بالدور الثاني بالفندق، مكتفيا بنثار ضوء تخلل شجرة برتقال تمد أغصانها إلى وأنا واقف في الشرفة. أنظر في السماء وأرسم على مسطح لوحاتها الداكن - إلا من وميض هلال ونجوم - رسومات بالأبيض الناصع لملائكة بوجوه أطفال تحلق فوق مراکش. وأنا أشم عبير البرتقال في هواء الشرفة، يردد قلبي في خفوت لحن مراکش متعددة النغمات، ويخفق لنغمة جواب في أعلى السلم الموسيقى آتية من وتر ربابة قديمة بثها لواعج قلبه الموسيقى صعيدى أسند ظهره إلى جدار ذي نقوش بمعبد الأقصر.

الحيرة تتملكني، فأنا لم أحدد لون مراکش بعد، ولم تتضح لي معالم لحنها الصالح والجهير. تقع عيناى داخل الحديقة أسفل الشرفة على ورده جاءت مع قوافل عربية انطلقت من الشام ومصر وجزيرة العرب منذ قرون في اتجاه واحة بمنطقة «ورزازات» القريبة. ظلال الزخارف الهندسية والنباتية والأقواس والخطوط في العمارة من حولي، تتسلق أغصان شجر البرتقال، وتحط على النجيل الأخضر، وتعانق بريق الفسيفساء والرخام في نافورة تعكس مياهما الساكنة نور الهلال.

صوت جرس الهاتف يوقظني. أشكر موظف الاستقبال بالفندق، وأنظر إلى ساعتى فأجدها تشير إلى الخامسة صباحاً. أخرج إلى الشرفة

لأشم نسيم الصباح المزوج بعبير البرتقال، لكننى أعود متعجلاً لارتداء
ملابسى والذهاب لأكون فى استقبال قافلة النور.

وحيد أنا أمام جلال المشهد فى غموضه المثير من حولى. أنصت إلى
الصمت وأنظر فى السماء العالية، فأستشعر كأن حزمة ضوء ونغم أشرقت
فى قلبى. إحساس جميل عذب تصفو له نفسى وتستعذبه روحى، وأنا
أقف وحدى أمام جلال المشهد المثير فى غموضه من حولى.

أسير فى فضاء الجمال النائم للمدينة على غير هدى. مئذنة مسجد
الكتبية العالية المنيرة تنادى على فألبنى النداء. أسير فى الشارع الطويل
الممتد المحفوف بالأشجار والزهور، ومقاعد رخامية خالية، وأضواء
القناديل، ووميض غامض نازل من هلال ونجوم فى الأعلى. قارب
صوت المؤذن بمسجد الكتبية على الانتهاء من الأذان لصلاة الفجر،
فأسرع من خطواتى فى اتجاه المئذنة. أقرأ السلام على عجوز يسير على
مهل مرتديا عباءته التى تنتهى بغطاء يغطى رأسه، فيقرئنى السلام
وعيناه تستغربان من خطواتى المتعجلة وأنفاسى اللاهثة فى لحظات
ربما لا يليق بها الاستعجال واللهاث.

إلى يمينى فندق المامونية الباذخ تحوطه هالة من الأسرار، وإلى اليسار
حديقة الأميرة «للاحساء» باسقة وجميلة. وعند كل زاوية ومنعطف
تفتصب وحيدة ماكينات الهواتف الآلية التى تعمل بالبطاقات المغنطة
وقد صممت عن الكلام. أنهى صوت المؤذن الأذان لصلاة الفجر فى اللحظة
التي تبدت لى فيها جدران مسجد الكتبية. أسرع من خطواتى وأنا أعرج

إلى ناحية اليسار مع سور حديقة الأميرة «للإحسان». في ارتياب ينظر في اتجاهى عجوز يمسك بيده اليمنى مفتاحاً يدخله في بوابة الحديقة ويفلقها من خلفه. أدور حول مسجد الكتبية باحثاً عن باب يدخلنى إلى الصحن الذى تقام فيه الصلاة. أخلع نعلى وأدخل من باب موارد لأقف فى الصف وأصلى لله صلاة الفجر.

أخرج من باب المسجد وقلبى يصدر ابتهالات وأناشيد تشيع فى روى غبطة وفرحاً. أنظر فى السماء باحثاً عن بصيص ضوء يدلنى على الاتجاه الذى تأتى منه الشمس فى رحلتها اليومية البديعة من الشرق إلى الغرب. شىء فى صدرى أشبه ببوصلة تنير لى الطريق الموصل إلى مكان اللقاء الذى أتعجله وأتوق إليه.

على وقع صياح الديك فى وقت السحر، تتجلى لى مراکش القديمة بمدارسها ومقاهيها وزنقاتها. مدرسة يوسف بن تاشفين، مدرسة ابن البناء المراكشى، مدرسة ابن طفيل، زنقة الموحدين، زنقة ابن خلدون، مقاهى تفتح أبوابها وتنشر مقاعدها وطاولاتها وتنشعل النار فى قدور الماء ومواقد الفحم. أتوقف للحظات أمام المشهد الطالع من صفحات تاريخ المدن العربية القديمة، ربما لأضبط عدسة الكاميرا فى ذاكرتى وألتقط صورة فوتوغرافية لمدينة مراکش القديمة البهية.

قط صغير أبيض جميل يسير فى حذر وبطء إلى جانب الرصيف يتطلع إلى فى تساؤل واستغراب. كلب ضال وحيد يتعثر فى ضعفه ووحدته وحزنه. عامل نظافة يمسك بمكنسته التى تترك من قمامة

الأرض أكثر مما تزيل. دراجات هوائية تحمل عمال بناء واسطوات ورش نجارة وحدادة وأثاث وبقالين ومكوجية وعمال مطاعم إلى مواقع عملهم. عربات نقل صغيرة تحمل الخُضْر والفاكهة لتقوم بتوزيعها على الدكاكين. عربات كارو تحمل أجولة القمامة. مدرسون وموظفون صغار يقفون أمام محطة الحافلات التي توصلهم إلى أعمالهم في ضواحي وقرى مراكش المتاخمة لجبال أطلس. دراجات بخارية تقودها سيدات مراكشيات في طريقهن إلى وظائفهن. شاحنات صغيرة تحمل زهور الجبل وورود الواحة والوادي إلى محال بيع الورد لتوزعها على الفنادق والقصور والفيلات.

هؤلاء هم أهل مراكش وشرفاؤها في خروجهم المبارك مع الخيوط الأولى للفجر، يشعلون الحركة والنشاط في دولا ب العمل اليومي، ويبذلون الجهد والعرق لكي تستمر دورة الحياة. إنهم أفراد الشعب الطيب البسيط مصدر كل السلطات في كل زمان ومكان.

أنظر في السماء وأوجه خطواتي الراكضة في الاتجاه الأقل عتمة والأكثر ضياء. تحجب البيوت والبنائيات عنى السماء الشاسعة وجبال أطلس الممتدة في شموخ، فأغزو السير والركض في الشوارع الفسيحة التي لا تعوقني عن النظر في السماء والتعرف إلى مكان اللقاء الذي يجمعني مع الشمس في لحظات الطلوع والبزوغ الأولى.

أمضيت وقتاً في محاولات الخروج من أسر الشوارع الضيقة والبيوت المتلاحقة التي تحجب عنى السماء التي بدأت أستار العتمة ترتفع عنها

شيئا فشيئا . فهل أرجأت الشمس لحظة طلوعها المبارك من أجلى حتى أكون فى استقبالها؟.

قافلة الشمس براياتها الحمراء البرتقالية وأعلامها الزرقاء والأرجوانية والرمادية، تطل من فوق الأبيض النقى الذى يستأذن الرحيل من فوق قمم جبال أطلس البعيدة الشاهقة هناك. المشهد من حولى مفعم بالألوان والضياء والأناشيد. جبال أطلس الرمادية البيضاء تضىء بالنور الساطع وترتدى حلالاً زاهية ملونة بهيجة تتغير ألوانها مع حركة طلوع الشمس ومع مهرجان الضياء. نسائم الصباح الوليد معطرة بعبير البرتقال ورائحة ورود «ورزازات» وأغصان الشجر وسيقان النبات تستحم بالندى والألوان. كتلة الوهج الحمراء القانية تشرق شيئاً فشيئاً وتسفر عن وجهها المضىء المنير، فتشرح لها صدور الكائنات وتستقبله بالابتهالات والأناشيد.

وحدى أنا أمام جلال المشهد، تطفر (تقفز) الدموع من عيني، فلا أملك إلا أن أخرج من جيبى ورقة بيضاء وقلماً أخط به رسماً تخطيطياً للمنظر الطبيعى الفاتن، لعلنى أصوره بفرشاة الألوان على لوحة بيضاء مثبتة فى حامل خشبى فى غرفة مكتبى بمنزلى فى منطقة أهرامات الجيزة فى مصر.

أنظر خلفى فأجد صف بنايات نوافذها الخالية من البشر تفتح على مشهد بداية رحلة الشمس اليومية البديعة، فأغبط قاطنيها وأدعو لهم بأن يفتح الله بصائرهم وقلوبهم للتمتع بالمنظر الطبيعى البهيج. وقلبى

مفعم بالموسيقى والأناشيد، أرقب قرص الشمس يتابع رحلته فى دقة ونظام، فأجدنى أرفع يدي مودعاً لأعود وأدخل نفسى فى سياق برنامج رحلتى إلى المغرب.

أقرأ فى صحف المغرب المجهولة لنا فى ربوع المشرق العربى عن سيرة رجل كرمته مراكش قبل قدومى إلى المغرب بأيام قليلة، هو المقاوم «الهاشمى الطود» الرجل الذى قاد حلمه الثورى إلى القاهرة فى رحلة سيراً على الأقدام استمرت ثلاثة أشهر، والذى حاز على ثقة عبد الكريم الخطابى زعيم ثورة الريف أثناء وجوده بالقاهرة، والذى قاتل بفلسطين عام ١٩٤٨ قبل وصول الجيوش العربية، ودرّب الآلاف من المتطوعين المغاربة، وأشرف على تأسيس القيادة الموحدة لجيش تحرير المغرب العربى، حتى إن مقاومين تونسيين فكروا فى منحه رئاسة تونس بعد الاستقلال.

«إعلان مراكش» - حديث الصحافة المغربية - أطلق على البيان الختامى للندوة العربية الأفريقية لمتابعة القمة العالمية حول مجتمع الإعلام المزمع إقامتها فى تونس، الذى اعتبر المشاركون فيه أن حرية التعبير والصحافة يتعين أن تشكل حجر الزاوية فى بناء مجتمع الإعلام بأفريقيا وفى المنطقة العربية وباقى أنحاء العالم. جدد إعلان مراكش التأكيد على مبادئ إعلان ويندهوك «١٩٩١» وصنعاء «١٩٩٦» حول النهوض بوسائل الإعلام المستقلة ومتعددة الاتجاهات فى أفريقيا والدول العربية. كما شدد إعلان مراكش على ضرورة تحول وسائل

الإعلام السمعية والبصرية التي توجد تحت مراقبة الدولة إلى إذاعات وتليفزيونات تتمتع بالاستقلالية وتمنح الصحفيين الاستقلالية المهنية. وأشار إعلان مراكش إلى أن النزاعات المرتبطة بمؤسسات الإعلام والعاملين بها أثناء ممارستهم لمهامهم يجب أن تعرض أمام قضاء مستقل. أشارت صحف مغربية إلى الترتيبات الإدارية والسياسية التي بدأت بين المغرب ومصر لنقل رفات زعيم ثورة الريف «عبد الكريم الخطابي» من القاهرة إلى أغادير مسقط رأسه. وتندرج الإجراءات حسب نشاطه في حقوق الإنسان في نطاق طي نهائي للملف. كما ألمحت الصحف المغربية أيضا إلى أن هيئة الإنصاف والمصالحة التي يرأسها المعتقل السابق «إدريس بن ذكرى» شرعت في الاستماع إلى إفادات زعماء سياسيين حول انتهاكات حقوق الإنسان.